تروتسكى

أحد مؤسسى النظام الشيوعى فى الروسيا

للأستاذ أحمد بك رمزى

كان تروتسكى أول ضحايا « استالين » ، وفى مقدمة الذين اضطهدتهم الشيوعية الروسية بعد وفاة زعيمها لينين ، مع أن تروتسكى أدى للثورة أجل الخدم . وليس لنا أن نتساءل ماذا سيكون موقف السوفييت ولا مستقبل النظام الشيوعى لو بقى تروتسكى حياً يرزق ، أو لو قدر له أن يحتل مركز الزعامة ، كما أنه ليس لى ولا لغيرى أن يصدر حكماً فى صالحه أو ضده ، وإنما أكتفى بأن أنظر إليه كرجل اضطهد ونفى ، وتحمل أشد أساليب الضغط على حريته ، وأبعد من محيط العمل السياسى والثورى فى بلد يدعى أنه أقام الثورة الكبرى ضد الرأسمالية ، وحطم القيود والأغلال ، لكى يهب السعادة والرفاهية والعمل الصالح لأكبر عدد ممكن من سكانه : فإذا به يضطهد رجلا كان من أشد أنصار هذا النظام القائم الآن فى السوفييت : خدمه كثورى وكاتب وخطيب ومؤلف ، ثم كانت نهايته الملاحقة والتفنن فى تعذيبه وهو فى غربته ، ثم قتله بصورة لا ترضى الإنسانية ولا يسلم بها العقل . فأنا إذا كتبت عنه أشيد به كرجل مثقف لقى من أنصار النظام الذى أقامه غير ما يستحق .

. .

بين « بولتافا » و « كيرسون » نشأ ليفي دافيد وفتش برونشتاين ، هناك حيث المروج الخضراء والغابات ، وفى السهول التى يطلق عليها اسم « كورجان » والتى تحفظ اسم « توجاى » التترى ، أو توجايسكايا بالروسى ؛ هناك رأى الطفل اليهودى الذى حمل اسم « تروتسكى » النور ، إذ ولد فى قرية يهودية تقع بجوار « كيرسون » فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٩ ، فتروتسكى اسم لاعلاقة له به وإنما غلب عليه ، ويدل اسم والده على تأثره بالجرمانية

أفتقد العون والساعد ولا أعرف الطريق . وأنت أخذتنى من بين أهلى يوم أن أردتنى لك زوجة ، واليوم — حين هانتنى نفسك أهيب بشهامتك أن تدفعك لترافقنى إلى هناك . وهذا — ولاريب أمر هين لا اخالك تضن به على »

وانتفض الفتى للفكرة ، وجاء تاريخه الطويل يعرض نفسه وهو يسمع صرخات الدم وصيحات الدين وثورات العقل ، يسمعها جميعاً تتعالى فى جلبة عنيفة لتوقظه من سبات عميق ران عليه شهوراً ، فأحس بالزلة الكبرى ، وتبدت له أفانين المكر والخداع التى لفته بين طياته ، تعميه عن الصواب وتدفعه إلى الهاوية ، غير أن عزيمته المتداعية ضعفت عن أن تذر الفتاة التى أحب أو أن تهجر الدار التى أغوته . وتماووه أمران ، ثم عقد شيطانه العزم على أن يسرح الزوجة الأولى .

ثم دخل الفتى الدار التى سعد بها زماناً ثم هجرها حيناً ... دار الزوجة الأولى ... دخلها فتدافع نحوه الصبية الأبرياء يتعلقون به فى شوق ، ويغمرونه بالقبلات الحارة فى شغف ، ويلصقون به فى عناق طويل حبيب إلى النفس . وهاجت شجون الفتى الساذج وتيقظ عقله ليرى الزلة الكبرى التى هوى فى قرارها حين غم عليه الأمر ، فتحدرت من عينيه عبرات والزوجة الأولى ترى ، فثارت عاطفتها الخالصة فاندفعت إلى حجرتها لتوارى خلف الباب ضعف نفسها وبكاء قلبها ... تحدرت العبرات من عينى الفتى لتمسح على تاريخ قصير من الحماقة والجهل والعمى ، تاريخ باع فيه صغاره الأحباء بالثمن البخس ، بفتاة ما فيها سوى بهرج الحضارة وزيف المدينة ، بفتاة خدعته فسرقته من زوجته وأولاده .

وبانت اللصة التى تستتر وراء فنون من الدلال والأناقة والتطرية والعطر ... تسترت وراءها جميعاً لتسرق الرجل من زوجته وأولاده . . بانت اللصة تنتظر عبثاً عودة الزوج الغر ...

وطار الطائر السجين إلى قفصه حين آذاه النور وآلمته الحرية فتخبط بينهما حيناً ثم ارتد إلى عشه الأمين : إلى زوجته وأولاده وهم نور عينيه وفرحة قلبه وبهجة حياته !

كامل محمود حبيب

ولو أن يهود هذه المنطقة يغلب عليهم أنهم من سلالة « الخزر » فهم أقرب ما يكون إلى الآسيويين أو إلى الشعوب الطورانية منهم إلى الشعوب السامية ، وإن كنت أعتقد أن تقاطيع تروتسكي تدل على انحداره من أصل إسرائيلي صميم .

ويقول تروتسكي في ترجمة حياته إن والده ينحدر من أسرة يهودية ، كانت تقطن قرية بجوار « بولتافا » في اوكرانيا ، — وهذه المدينة هي التي نسب إليها في التاريخ القائد العثماني الشهير بالطبجي باشا ، وسمته بولتاجي باشا ، الذي اسر بطرس الأكبر ثم فك حصاره . وقد هاجر والد تروتسكي متجهاً إلى الجنوب ومعه بعض المال ، فاشترى مزرعة بجوار مدينة كيرسون ، الواقعة على شواطىء البحر الأسود .

والمتتبع لتاريخ اليهود وفرقهم وسحنتهم ، يلمس من أول نظرة الفرق الكبير بين يهود البلاد العربية ، إذا قارنتهم بيهود أوروبا ، ولكن هناك فريقاً ينفرد بميزات خاصة عن يهود أوروبا هو فريق يهود الروسيا . انهم عنصر قائم بذاته ، لأنه يأتي من بلاد لا تزال القرى والمدن فيها تحمل أسماء تترية اسيوية ، فهو من هذه الناحية يختلف تماماً عن غيره من يهود العالم لأنه يمتاز بشدة المراس والشجاعة . والغريب أن ينشأ صاحب القلم الثوري في وسط غير عمالي ، فهو يقرر أن والده كان في سعة من العيش ، وأنه لم يذق قط في حياته شظف الحرمان ، وأن الثورة التي دعا إليها وكافح طول عمره من أجلها ، انتهت بحرمان والده من مزرعته وتشتيت أفراد عائلته الذين اضطهدوا في عصر القيصرية ثم من جيوش دنيكين وفرانجيل بحكم قرابتهم له طول أيام الحروب الأهلية ، ولما جاءت جيوش البلاشفة اتهموا كرجال رأسماليين ، فكان نصيبهم سيئا في الحالين .

. . .

إنني لا أزال أذكر جيداً ، كيف قرأت له لأول مرة في حياتي ، فقد كنا نقيم طول أيام الحرب العالمية الأولى في ضاحية المعادي ، وفي سنة ١٩٢٠ بعد انتهاء الحرب كنت بمحطة باب اللوق ، حينما وقع نظري على كتاب بعنوان « الثورة الروسية » بقلم ليون تروتسكي ، وهو على ما أذكر أول كتبه ، ورغم أنني كنت في السنوات الأولى بمدرسة الحقوق بمصر ، ومعلوماتنا في اللغات الأجنبية كانت محدودة ، فقد اشتريت الكتاب وقرأت فصوله التي تحدث فيها عن الثورة الروسية ، ومحاولات عقد الصلح بين روسيا من جهة ودول المانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا من جهة أخرى ولا اخفي القارىء أنني تأثرت من كتابة تروتسكي وقلمه ، فانطبعت في مخيلتي الثورة وحوادثها ومآسيها ، وتعرفت على أسماء البلاد الروسية وأشخاص السوفييت ، فاستعملت كل ذلك في محادثاتي مع الكثيرين من الضباط الروس الذين جاءوا لمصر ، وكانوا يملأون شوارعها عقب هزيمة القوات الوطنية ، التي حاولت إخماد ثورة البلاشفة .

كان هذا أول اتصال لي بتروتسكي ، الكاتب المؤرخ للثورة الروسية التي قامت سنة ١٩١٧ .

. . .

ثم رأيته رأي العين ، وكان ذلك في استانبول حينما نفي إلى تركيا ، فقد كنت أتناول الغداء في مطعم روسي بحي « بيوغلي » حينما جاءت المضيفة وهي سيدة من الروس البيض ، وأشارت إلى بأن أنظار إلى مائدة عليها جماعة من الناس ، تحيط بها عدة موائد مشغولة برجال يظهر على سحنتهم أنهم من رجال الأمن ، ثم قالت : ها هو تروتسكي بين الجالسين قالت هذا والفرح يشع من عينيها . انها كانت تنتظر هذا اليوم لجميع رجال البلاشفة ، والعودة إلى وطنها حيث ذكريات الماضي ، انها كغيرها كانت تحلم بالفردوس المفقود ...

ولما توجهت لتلك الناحية بناظري ، رأيت عن قرب الرجل الذي كتب المذكرات التي رافقتني في ذهابي وإيابي بقطار حلوان قبل ذلك العهد بأكثر من عشر سنوات ، رأيته جالساً امامي على بعد خطوات مني ، فكان أول ما لفت نظري تلك اللحية المدببة على وجه أصفر اللون ، اظهر ما فيه النظارتان ثم العينان ، أن لهما لوناً خاصاً بين الزرقة والخضرة الفاتحة ، أنه قريب الشبه بالصور النحوتة على بعض المعابد المصرية القديمة ، والتي تمثل جماعات الاسيويين في هجرتهم من آسيا إلى أفريقيا ...

ورأيته رقيق الجسم أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، يحوطه شيء من الغموض والانكفاء على نفسه ، فهو قليل الكلام مع من معه ، مقتر على نفسه حتى في تناول الطعام .

جاء تروتسكى إلى تركيا بناء على اتفاق سابق مع السوفييت، بعد أن ضيق هؤلاء الخناق عليه إبتداء من أوائل سنة ١٩٢٨، فبعثوا به إلى أواسط آسيا حيث قضى سنة على حدود أراضى الصين، ولما خفتت أصوات أنصاره وتبين للسلطات انه لم يعد ينفع ولم يعد يضر، سمحوا له بمغادرة البلاد، ووافقوا على أن يقيم بتركيا، فنزلها فى فبراير ١٩٢٩ وأختار أن يسكن فى منزل بسيط بجزائر الأمراء، الواقعة أمام الشاطىء الاسيوى.

وكنا كثيراً ما نذهب اقضاء يوم بطوله فى تلك الجزر الجميلة وفى أحد الأيام طرأت علينا فكرة زيارة تروتسكى والتحدث إليه، وجاء الاعتذار عن لسانه بالتلفون رقيقا، مما يدل على أن الزعيم قد أعطى كلمة الشرف، على ألا يستقبل غير أهله واخصائه فى منفاه، وهكذا رأيت تروتسكى رضاعت منى فرصة التحدث إليه والسماع لأقواله ونظرياته

. . .

يحدثنا تروتسكى عن نفسه فى كتابه عن تاريخ حياته، فيقول ان الطبيعة قد قضت عليه منذ نشأته: أن يكون ثورياً إنقلابياً، فهو قد ولد ونشأ وعاش وكافح من أجل أفكار ومبادىء وآراء معينة، ثبتت فى مخيلته وتملكت نفسيته وملأت روحه فلم يستطع أن يحيد عنها، أو يجد عنها حولا طول السنوات التى عاشها.

وقال أنه نشأ وترعرع فى وسط غمرات تعاليم الثورة، فلم يشعر فى قرارة نفسه بأنه ملك شعب من الشعوب أو جنس من الأجناس أو دين من الأديان، فانتهى به الأمر أن أصبح أمميا، أى ملكاً للأمم كافة، لا يعرف سوى مذهب العالمية، هذه العالمية التى جعلت منه فى النهاية بعد سنوات النفى بواشنغيا، يقود أكبر ثورة عمالية على الأرض فى وسط بلاد تعد أكثر البلاد تمسكا بالرجعية.

وقال « أنه يؤمن بالثورة على حد أنها تغيير بطىء أو عنيف يصيب الكيان السياسى والاجتماعى والدستورى، نتيجة لتبدل الأسس الأقتصادية والإنتاجيه لأمة من الأمم » وهو التفسير الذى وضعه كاوتسكى قبله فى كتابه الثورة الإجتماعية.

ولكن زعيم الانقلاب الروسى، كان يعلم فى داخلية نفسه أن أكثر من تسعة أعشار الشعوب الروسية ضده، وأن عنصر المفاجأة والتضليل والدجل على الجماعات هو الذى مكنه من الحصول على انتصاراته الأولى: وقد كان إذ كسب الجولة الأولى. .

. . .

فما الذى ساعده على الوصول إلى مقام الزعامة بجوار لينين ثم ما الذى انزله من مكانته؟ إن القلم الذى يحمله تروتسكى، كان ثوريا إلى النهاية فى كل قطرة من مداده، ... لهذا أقر الناس بأن كتابته هى أقوى أسلحته وأشدها فتكا وأعمقها أثراً فهو قد بلغ أعلى المراكز وقدم للثورة أعظم الخدمات، وأنشأ الجيش الأحمر وانتصر به فى الحروب الداخلية وفى رد العدوان الخاص عن أراضى السوفييت، ومع ذلك وضع فى الصف الثانى بعد وفاة لينين، وأبعد من المناصب التى يؤهله علمه وعمله وجهاده لها، فمال للعاصفة حيناً حتى أخرج للناس كتابه عن ثورة عام ١٩١٧، فاذا أهم ما فيه سبعون صفحة جعلها نقداً وتحليلا لحوادث ثورة نوفمبر من تلك السنة، كانت بمثابة تتويج لعمله الثورى الإنقلابى فى الثورة الروسية، حيث أبرز فيها ما قام به من أعمال ...

وهنا قامت قيامة الحزب الشيوعى عليه فسلقه رجاله بألسنة حداد أرضاء « لاستالين » هنا وكتبوا عنه فى لجانهم ومجتمعاتهم:

« انه يضع المقاييس لنفسه ولأقرانه، ويصور بقلمه الجبار صورته للناس ويشيد بعمله كى يخرج من كل ذلك انه الصانع الأول وصاحب القدح المعلى فى ثورة نوفمبر ولولاه هو لما قامت ثورة البلاشفة ».

ترى لو تركوه ماذا كان يحدث فى أراضى السوفييت؟

سؤال لم يترك له الوقت لأنه ما لبثت ان انقلبت الصحافة عليه، فى أنحاء الاتحاد السوفيتى تدعو الى جمع كتبه وحرقها وقالت:

« انه كشف النقطة الضعيفة فى درعه ... ان الثائر الكبير قد تملكه الغرور، وهو داء رأسمالى لا يعرف طريق الولوج الى قلوب الثوار، ان تروتسكى يحاول ان تتفنن به الناس وأن تخضع لعظمته الجماعات، ان طابع الغرور والانانية ومحبة الذات من بقايا العصور البائدة، أما رجال الثورة فيعيشون من أجل الثورة لا من أجل انفسهم ». ثم تساءلوا ...

« من هذا القزم الذى يحاول ان يضع نفسه على مقعد الزعماء الخالدين ؟ فيحط من قدر اخوانه وزملائه فى الجهاد ، ويحاول ان يجعل من مقاييس الثورة المنبثقة من تطور التاريخ وكفاح السوفييت وتأييد الجماهير ، غشاء لا رضاء نفس متحيرة مترددة ضعيفة ...

« انها نفس تقبل على عاتقها ان تحط من جلال عمل كبير ، وان تنسب الى جهودها إخراج المستحيل والوصول إلى عظائم الامور وأصعبها وانه « لولاها لما قامت للثورة قائمة » .

« ان هذه النفس مريضة وفيها بقايا الإنسان الرجعى »

ويعذرنى القارىء اذا قلت ان تروتسكى لقى جزاء سنمار بعد هذه الحملة التى جعلته عدواً للنظام القائم الذى أخذ يتتبع أنصاره واتباعه ويبعدهم واحداً بعد الآخر عن مناصب الدولة .

ثم جاءت الخاتمة . نعم ان الرجل الذى افنى عمره فى سبيل الثورة وأتاه نبأ احتضار والده ، وهو يرأس لجنة شؤون الحرب بقصر الكرملين ، لم يشأ أن يوقف عمل اللجنة ليودع والده الوداع الأخير ، بل استمر فى رئاستها يناقش أعضاءها .

وجاء وقت دفن أبيه فلم يشأ أن يقوم من مقعده . أنه يعتبر نفسه قد تحرر من أمراض الرجعية ، ويريد أن يضرب بنفسه مثلا لما يجب أن يكون عليه رجل الثورة الذى لا تشغله الغرائز ولا تجد العواطف أو الواجبات مدخلا لقلبه ، ولكن ماذا كانت حاجته ؟ كانت النفى والتشريد ثم القتل بعيدا عن الثورة ، وعن الفردوس الذى تصور أن يقيمه بيـــديه ، وانتهت حياته فى المكسيك ، ولم يحظ برثاء أو تقدير من هذا النظام الذى أقامه وتعهده وكافح من أجله ...

لقد قرأت خبر نكبته وفصلته ووضعت أمامى ما كتبه هذا الزعيم فى أوائل الحكم الشيوعى : —

لقد كان من نتائج هذه الحرب (١٤ — ١٩١٨) أن تزعزعت أركان الرأسمالية فأخذت تنهار ، وها نحن نبرز إلى الوجود بجرأة وعزم فلا يمكن لقوة فى العالم أن تقهرنا . ألا يشبه هذا ما يقوله دعاة السوفيت اليوم ؟ إنهم يحلمون بالثورة الكبرى كما كان يحلم تروتسكى ، ويرددون قوله : إن السور المحكم الذى يحاول الأعداء من قوى الاستعمار والرأسمالية أن يحيطونا به ، سنحطمه تحطيما ... أنهم ستأخذهم رجة واحدة وسوف تلبى الجموع دعوتنا ، وتأتى صفا صفا الينا ، لإنشاء العالم الجديد ؛ بارادة لا تعرف التراجع ، لأن القوة العالمية المركزة تحت عزيمة ثابتة لن تقف أمامها عقبة . ولن يحول دون انتصارها حائل . وهكذا استمر الزعيم يتنبأ كنبوءات بنى اسرائيل فقال : «ألا فاعلموا . أن التاريخ يحارب فى صفنا ، والزمن حليف لنا . إن الثورة الاشتراكية ستنشب حتما فى كل من أوربا وأميريكا ، مهما بعد الزمن أو قرب » ومر الزمن فلم يحدث شىء من ذلك . لقد اسكرت نشوة الظفر تروتسكى فاذا بنبى الشيوعية يغرق فى غمرات الأحلام والآمال ، وبقى راديو موسكو يردد نبوءات تروتسكى ثلاثة وثلاثين عاماً ، ولم تقم الثورة العالميـــة الكبرى ، ولم ينشب الجوع اظفاره فى رقاب الطبقات الحاكمة : لقد كان تروتسكى يقيس العالم بما رأته عيناه فى روسيا ، فاذا بها تنفرد وحدها فى طريق والعالم فى طريق آخر : —

لقد مات تروتسكى ، وإذا بأحلامه أبعـد عن التحقيق اليوم من سنة ١٩١٧ ، وإذا نحن فى بداية النهاية . إن الثورة التى أحسن أدارتها من مكتبة فى مدرسة بالعاصمة الروسية سنة ١٩١٧ قد خمدت وهى تتطور وتسير نحو الانكماش ، وقد يأتى يوم تسير فيه إلى المنفى كما سار هو من قبل .

كان كارل ماركس ولينين من جبابرة الفكر ، وكان تروتسكى من جبابرة الثورة ، وقد تركوا من الانقاض والخرائب فى الروسيا وغيرها ما يشغل جيلا . إنها خسائر المادة . أما ما تركوه من الآلام وضياع الآمال فلا سبيل لإصلاحه . إنها كانت تجربة قاسية دفعت ثمنها الانسانية غالياً « وإنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » .

أحمد رمزى